

منارة الماضي :

زيارة لحصن الأكراد

الاب وحرب

للأستاذ أحمد رمزي بك

(تمة ما نشر في المدين السابقين)

٣٩ - ويرجع الفضل إلى إحرار هذا النصر إلى عقيدة القضاة على الفرنج وإنهاء الحروب الصليبية لإنهاء تاماً، تلك العقيدة التي تملك عقول الجنود والقواد وملوك مصر منذ بدأ يبيرس حملاته والتي تتلخص في الاستيلاء على الحصون والقلاع وعدم ترك الفرصة حتى تسترد الولايات اللاتينية استمدادها مرة أخرى، وعليه أفرغ كتاب الفرنج جملة شتائمهم على هؤلاء الأبطال، وكتب جبون يرثي الحروب الصليبية يقول: «ساد سكون محزن غريب مظلم على طول ذلك الشاطئ» الذي ظل زماناً طويلاً تترد فيه أسدء النزاع العالي وتر عليها كتاب المقاتلة»

٤٠ - أنشأ الصليبيون مآقل وأبراجاً في الحصون التي احتلواها تشهد لهم بطول الباع والأناة وللمرب والبيزنطيين، بل وللفرس وغيرهم آثار تشهد لهم أيضاً:

وهذا فن بهم أربابه، وقد أخرجت البعثة الفرنسية حجارة نحتها العرب وأخرى نحتها الفرنج من أسوار حصن الأكراد، وفي أسوار قلعة القاهرة من الحجارة ما نحتته أسرى الفرنج، فقد كانت الطريقة المتبعة استعمال الأسرى في هذه الأعمال.

٤١ - وقد استعمل حصن الأكراد وغيره من الحصون في فترات الهدوء التي دامت بين هجوميين عظيمين: استعمل كراس حرية مدة احتلاله بالصليبيين لإدخال الزعب في قلوب المسلمين، ثم كلباً بلبجاً إليه المقاتلة والفرسان بمد عودتهم من حنة موقفة ليستجمعوا ويستعيدوا قوتهم ليعودوا مرة أخرى إلى النزور.

٤٢ - وقد بقي حصن الأكراد ١٣٠ عاماً وهو رأس حربة كما قلنا يهددون بها حصن وما حولها، ويحاولون دون المسلمين

والانصاف بالجهات التي نمت حكمهم في بملك والبلاد الأخرى .
المجاورة لها .

٤٣ - ولما شعر المسلمون بأهمية هذا الموقع العسكري وأذاه في صفوفهم لجأوا إلى نور الدين الشهيد صاحب دمشق الذي جمع جنوده في سنة ثمان وخمسين وخمسة و نزل تحت حصن الأكراد، فبينما هو في معسكره وفي وسط النهار، دهمته كتاب الفرنج من خلف الجبل القائم عليه الحصن، وأحاطت بالجيش الإسلامي وهو على غير أهبة فأعملت فيه السيف، وقصد الأفرنج خيمة العادل نور الدين، فكاد أن يقع أسيراً لولا رباطة جأشه وسرعة خاطره إذ خرج من الباب الخلفي وركب فرساً للذوية، وكانت بقيدها الخلفي فنزل أحد أتباعه من الأكراد فخلها وتقل لساعته، ولولا لوقوع نور الدين في الأسر.

٤٤ - وفي هذه الحادثة بالذات يقول أبو الفرج عبيد الله ابن سعد الموصل من قصيدة فائقة:

بنى الأصار ما نلتهم بمكرهم والمكر في كل إنسان أخوانفشل
وما رجعتهم بأسرى خاب سمعكم غير الأراذل والأتباع والسفل
هل آخذ الخيل قد أردى فوارسها مثال آخذها في الشكل والطول
أهـ سالب الريح صر كوزاً كساليه والحرب دائرة من كف معتمل
وفيهما يخاطب نور الدين:

لانسكبت هتك الأقدار عن غرض ولاننت يدك الأيام عن أمل

٤٥ - ويرغم ما في القصيدة من محاولة الاعتذار أمام الهزيمة والفرار، فإن العملية الحربية الصليبية كانت ناجحة إذ تجلب فيها عنصر المفاجأة وظاهرة السرعة بدليل تتبع المهزومين حتى حصن والفضل للموقع الممتاز لحصن الأكراد، ذلك الموقع الذي أتمب المسلمين أكثر من قرن من الزمن كما قلنا.

٤٦ - ولدينا من قبيل هذا المقال الكثير من الهجمات والمتاعب التي سببتها جامية حصن الأكراد الصليبية لمدينتي حصن وحماة وغيرهما من بلاد المسلمين.

ففي عام ٥٩٩ زحف الفرنج من حصن الأكراد إلى مدينة حماة فركب صاحبها وحاربهم في رمضان. وجاء في السلوك ضمن حوادث سنة ٦٠٣ أن الملك العادل الأيوبي صاحب مصر خرج من مصر إلى العباسية ومنها إلى دمشق ثم برز إلى حصن، وذلك

٥١ - ومحدثنا الرواية بالتفصيل عن بعض ما قام به الملك الظاهر فقد أمضى أياماً في الصيد ، وكان يصنع السهام بيده وبريش النشاب ، وكان يحضر العارة بنفسه ويشجدهم هم الحال ويشجعهم بل كان يشمر وينقل الحجارة على كتفيه ، وكان ينزل في الخندق ويحفر بيديه . ولما أتم العارة وأعاد تركيب المنجنقات أمر بتجربتها أمامه ليعرف أما كن سقوط حجارتها ومدى إصابتها للأهداف .

٥٢ - وتنظم الحياة مرة أخرى بحصن الأكراد إذ تولى القيادة فيه الأمير حسام الدين قباذ الذي مر ذكره : وأطلق عليه اسم نائب حصن الأكراد والسواحل والفتوحات على رأس حامية مؤلفة من ٥٠٠ جندي وعشرة أمراء طبلخانة و ١٥ أمير عشرة ٥٣ - وبمقارنته هذه الحامية تظهر أنها أقل مما كان يحتل الحصن من جنود الصليبيين إذ كانت تتراوح بين ٢٠٠٠ و ٣ آلاف وهؤلاء يدخل بينهم الخدم والزراع وطوائف من أهل البلاد .

٥٤ - وبعد حسام الدين قباذ تمين سيف الدين بليان الطباخي ثم الأمير علم الدين سنجر الدواداري . وبوسع المهتمون بالتاريخ المصري استكمال هذا الكشف حتى يكون مكملًا للكشف الذي ضم أسماء من تولوا القيادة بالحصن أيام الاحتلال الصليبي .

٥٥ - انتهى الحصن في عهد المنصور قلاوون إلى أن أصبح مركز تجمع الجيوش التي حشدت هناك للزحف على مقاطعة طرابلس ، وكان الطباخي يقود الحامية من البرج الذي كان يحتله عميد الاستبار ، ويبيت بطلانته لاكتشاف الأماكن التي نزلها الجنود قبل حصار طرابلس .

٥٦ - وفي عهد الملك الأشرف خليل بن قلاوون اشتركت الحامية في أعمال الحصار الرائمة حول مدينة عكا وقد قامت ومعها المجانيق التي ركبها الملك الظاهر ومن بينها منجنيق هائل أطلق عليه اسم المنصوري .

٥٧ - أتينا بصورة من الحياة والقتال في الحصن في المهددين الصليبي والإسلامي لكي تسهل المقارنة وتركنا فتح الحصن على أيدي المسلمين جانباً حتى لا يكون فاصلاً يضيغ المقارنة بين المسلمين .

عقب الحملات المتتالية التي شنتها حامية حصن الأكراد وتمسد النارات على كل من حصن وحماة ، ونازل الحصن وأسر خمسمائة رجل من أطرافه . واقد نازله قبله صلاح الدين وغيره من ملوك المسلمين ولكنها كانت جميعاً حملات ترضية استكشافية ، أو إذا شئت تأديبية ضد المقاتلين من جماعة الصليبيين المستحكيين في هذه القلعة ولم يعقبها حصار كامل الأهبة والاستعداد كما حدث بعد ذلك .

٤٧ - وقد بقي هذا الحصن قذى في أعين المسلمين يهدد بلادهم حتى تم فتحه في عام ٦٦٨ هجرية على يد الملك الظاهر بيبرس سلطان مصر وصاحب الفتوحات وهو ما سنفرد له فقرة خاصة تأتي بعد ذلك .

٤٨ - وقبل أن يتم الفتح على يديه اتبع طريقة أسلافه ، وهي الهجاء الترضية السريمة لجس نبض الحامية واستنفارها للخروج من وراء الخنادق والأبراج ؛ ففي هذا العام أي في ٣ جمادى سنة ٦٦٨ ركب الملك في مائتي فارس وأغار على أطراف الحصن ثم صعد إلى الرابية ومعه قدر أربعين من الفرسان فخرج عليه عدة من الفرنج ملبسين بالدروع تحمل عليهم وقتلهم وتبهم حتى دخلوا الحصن . وتقول الرواية إنه صاح بهم ليدعوا رفقاهم إلى الخروج ، وأشار إلى عدد من ماله وأنهم جميعاً بأقبية ييض أي غير مدرعين بالزرد والحديد .

وتشير الرواية إلى أنه عاد إلى مخيمه وأطلق الخيول في الروج الخضراء والزراع التي كانت حول الحصن .

٤٩ - وكانت هذه آخر الحملات التأديبية إذ سقط الحصن بمداه في أيدي الملك الظاهر الذي يادر إلى ترميمه وإعادة إصلاح أبراجه وخنادقه واتخاذ نقطة ارتكاز لجيوشه في عملياته الحربية ضد الفرنج المبتلين لمقاطعة طرابلس ، فأصبح حصن الأكراد رأس حربة موجهة إلى الغرب بمد أن كان موجهة إلى الشرق أي إلى قلب الأراضي الإسلامية .

٥٠ - ولهذا الوضع أمثلة في الحروب الحديثة فإن الزايرين لمنطقة جبال الكارسو في شمال إيطاليا لا بد ماينوا الحصور الكائنة في جهة سان ميشيل وسابوتينو حيث لا تزال أماكن للدقمية التي استعملها النمسويون وأما كن تلك التي استعملها الإيطاليون بمدم ظاهرة .

٥٨ - فقد أشرنا إلى عملية قام بها الملك الظاهر تشبه المهجمات التي اعتادها ملوك المسلمين وأسراؤهم ولم يكن يرى من ورائها إلى هدف معين . وسنرى في حملته على حصن الأكراد كيف يلجأ إلى أساليب المفاجأة والسرعة وتضليل الخصم .

٥٩ - ففي السنة التي أتم فيها الملك الظاهر إنشاء الجسر والتقاطر القائمة بقرب شبرا ، قرر فتح حصن الأكراد الذي استمعى على غيره من اللوك والأمراء .

٦٠ - وإليك برنامج السفر : غادر القاهرة في ١٨ جمادى الآخرة ، وصل دمشق الخميس ١٨ رجب ، وفي المدة السابقة لوصوله أي بين ١٨ جمادى و ١٨ رجب أشغل العدو إذ ابتدأت الحملات الخاطفة ضد قلاع الصليبيين في :
جبله . وسقطت حصون اللاذقية . صافيتا . المرقب .
المجدل . القليبات . طرطوس :

٦١ - في يوم ١٩ رجب الموافق ٣ مارس سنة ١٢٦٧ تجمعت قوات الملك الظاهر أمام حصن الأكراد .
ونلاحظ في هذه الأعمال اختفاء الهدف الرئيسي حتى اللحظة الأخيرة .

٦٢ - جاء إليه ابنه الملك السعيد والأمير بيليك الخازندار وبمجرد وصولها بدأت أعمال الحصار : إذ أخذت الجنود في نصب المجانيق وعمل الستائر لحماية الرماة .

٦٣ - افتحمت الأسوار الثلاثة على التوالي عنوة ما عدا البرج الأخير الذي استحكم فيه فرسان الاسبتار حتى آخر مراحل الحصار .

٦٤ - في ٧ شعبان سقطت الباشورة الثانية التي تؤدي إلى الحصن الداخلي ، ودخلت المساكن البلد بالسيف وأسروا من فيه من الجبلية والمزارعين ثم أطلقوهم .

٦٥ - وفي يوم الاثنين الثالث والمشرين من شعبان طلبت الحماية الأمان فأمسهم الظاهر وتسلم البرج الأخير فدخله وكتبت البشائر وترتب أرباب الوظائف بالحصن من جهة الممثلة المصرية أي النواب والقضاة وبقى بيد مصر حتى دخول السلطان سليم ديار الشام ، فزال ملك مصر عنها كما زال عن غيرها من البلاد .

* * *

٦٦ - هذا هو حصن الأكراد الذي توجهنا لزيارته ومررنا بأقسامه ، ووقفنا أمام أبراجه ، وفيها أبراج بناها النصور

٦٧ - ودخلنا أماكن الخيول ، وقد كشفت عنها البمته الفرنسية فرأينا ما أدهشنا : أثر حوافر الخيل ومواضع ربطها والحديد الذي كانت تشكل به . لقد كان الدم ينطى كل هذا ، ولما أخرجته يد الإنسان من تحت التراب إذا به كما كان يوم تركه أصحابه منذ مئات السنين .

٦٨ - وكان للحصن آبار وجار للمياه حينما كشف عنها وجدت أواني من النحاس من عصر الملك الناصر محمد ورؤوس النبال والرمح .

وعدت من الحصن وقد غمرتنى نفحة من تلك النفحات التي تؤذن بخروج الإنسان من طور ودخوله إلى طور جديد من أطوار الحياة : فقد تغيرت نظرتي إلى بعض الأشياء ، وأخذت طريقاً للإشباع نفسى بتقليب صفحات الماضي الذي بدأت أحس بأنا قطعة منه .

٧٠ - وإذا بي أؤمن بأن تاريخ مصر والشام وحدة لا تنجزأ ، وأن أية محاولة للفصل بينهما تؤدي بنا إلى نتائج مكسوة أي تقرير مبادئ سلبية يقصد أصحابها توزيع القوى والمزاعم وتجرير الأمم وإتقاص الدور الذي ألقته علينا الأقدار وحمله لنا التاريخ كقوة مقاتلة منشئة منتصرة .

٧١ - وهأنحن نعيش في عصر طابعه السرعة والإقدام ، والبناء والخلق والتجديد ومع هذا لا تزال نسير على خطوات وثيدة والزمن يمدد أمامنا : ذلك لأن عوامل التفكك والانحلال والسلبية لا تزال تتمثل في صفوفنا وتموقنا عن الأهداف الكبرى

٧٢ - هل كان الذين انتصروا في هذه الحروب وقادوا الحملات وتقبلوا على الحوادث لهم نظرة خاصة ومنطق خاص حتى تغلبوا على قوات تفوقهم : وأحرزوا النصر ، وأنا لا نستطيع أن تكون لنا مثل نظرتهم ومنطقهم ومثلهم العليا ؟

إن الذين غاضوا هذه المارك أظيروا نهاية ما يمكن من الإقدام حينما وجدوا القيادة الصالحة ، فهل يجدها معاصرونا الآن؟ إن استمرار الكفاح والجهاد لمدة تقرب من قرنين هو أظهر دليل على أن صفات الاستمرار والمداومة ثابتة في الصفوف بين الأمم الإسلامية ، ولا نحتاج إلا لمن يظهرها ويحسن قيادتها وتوجيهها .

٧٣ - ونحن لا نعيد الحروب الصليبية بمآسيها ومآعبها

٥٨ - فقد أشرنا إلى عملية قام بها الملك الظاهر تشبه المهجمات التي اعتادها ملوك المسلمين وأسراؤهم ولم يكن يرى من ورائها إلى هدف معين . وسنرى في حملته على حصن الأكراد كيف يلجأ إلى أساليب المفاجأة والسرعة وتضليل الخصم .

٥٩ - ففي السنة التي أتم فيها الملك الظاهر إنشاء الجسر والتقاطر القائمة بقرب شبرا ، قرر فتح حصن الأكراد الذي استمعى على غيره من اللوك والأمراء .

٦٠ - وإليك برنامج السفر : غادر القاهرة في ١٨ جمادى الآخرة ، وصل دمشق الخميس ١٨ رجب ، وفي المدة السابقة لوصوله أي بين ١٨ جمادى و ١٨ رجب أشغل العدو إذ ابتدأت الحملات الخاطفة ضد قلاع الصليبيين في :
جبله . وسقطت حصون اللاذقية . صافيتا . المرقب .
المجدل . القليبات . طرطوس :

٦١ - في يوم ١٩ رجب الموافق ٣ مارس سنة ١٢٦٧ تجمعت قوات الملك الظاهر أمام حصن الأكراد .
ونلاحظ في هذه الأعمال اختفاء الهدف الرئيسي حتى اللحظة الأخيرة .

٦٢ - جاء إليه ابنه الملك السعيد والأمير بيليك الخازندار وبمجرد وصولها بدأت أعمال الحصار : إذ أخذت الجنود في نصب المجانيق وعمل الستائر لحماية الرماة .

٦٣ - افتحمت الأسوار الثلاثة على التوالي عنوة ما عدا البرج الأخير الذي استحكم فيه فرسان الاسبتار حتى آخر مراحل الحصار .

٦٤ - في ٧ شعبان سقطت الباشورة الثانية التي تؤدي إلى الحصن الداخلي ، ودخلت المساكن البلد بالسيف وأسروا من فيه من الجبلية والمزارعين ثم أطلقوهم .

٦٥ - وفي يوم الاثنين الثالث والمشرين من شعبان طلبت الحماية الأمان فأمسهم الظاهر وتسلم البرج الأخير فدخله وكتبت البشائر وترتب أرباب الوظائف بالحصن من جهة الممثلة المصرية أي النواب والقضاة وبقى بيد مصر حتى دخول السلطان سليم ديار الشام ، فزال ملك مصر عنها كما زال عن غيرها من البلاد .

* * *

٦٦ - هذا هو حصن الأكراد الذي توجهنا لزيارته ومررنا بأقسامه ، ووقفنا أمام أبراجه ، وفيها أبراج بناها النصور